الفصل الثالث

التفـــاؤل

من فجر الحضارة الغربية إلى السنوات الأولى من القرن العشرين، كان تاريخ الغرب محكوماً بفكرة واحدة وحقيقية واقعة واحدة، تلك هي التفاؤل الكبير المتعاظم دائماً حول الإنسانية، والثقة بقدرتنا باستمرار على أن نحسن العالم، والتفاؤل قاد إلى الفاعلية، أي إلى أفعال مصممة لزيادة فهمنا للعالم الطبعيّ ولزيادة سيطرتنا عليه، ولقد كان التفاؤل دائماً صفة غربية بشكل بارز، وكما يقول عالم النفس ريتشارد نِسبِت:

> العالم، للآسيوي، مكان معقد... موضوع للسيطرة الجماعية أكثر مما هو للسيطرة الشخصية. والعالم، للغربي، مكان بسيط نسبياً... موضوع للسيطرة الشخصية للغاية. عالمان مختلفان جداً بالفعل[1].

جذور التفاؤل

تستقر في قلب التفاؤل الغربي ثلاثة معتقدات منضفرة معاً، الأول: هو أسطورة الحكم الذاتي[2] إذ يستطيع الناس أن يكونوا قادرين على

---

(1) ريتشارد ئي. نسبت (2003) جغرافية الفكر: كيف يفكر الآسيويون والغربيون تفكيراً مختلفاً... ولماذا؟ نيكولاس بريلي، لندن، ص 100.

(2) في تسميتنا المعتقدات الثلاثة «أساطير»، نعني أنها تجسيدات قوية لمفاهيم لا يمكن التحقق منها، ولا نستخدم كلمة «أسطورة» في أي معنى انتقاصي.

obeikandl.com

البدء الذاتي والمستقل، وأنهم يمتلكون الإمكانية لتولي المسؤولية عن مصيرهم، وأن يشكلوا العالم من حولهم لمنفعتهم الشخصية، والثاني: هو أسطورة الخيريّة، إذ الخلْق في نهاية الأمر خيّرون، والبشر، بوصفهم جزءاً من خلق الله، هم خيرون في الأساس أيضاً، وهم قادرون على أن يكونوا أفضل، والثالث: هو أسطورة التقدم، فالتاريخ يسير، وله اتجاه، وأن الحاضر أفضل من الماضي وأن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر.

أساطير التفاؤل الثلاث ولدت في الأصل في القرون الخمسة أو الستة قبل المسيح، وفي القرون الثلاثة بعد ميلاده، في اللاهوت اليهودي والمسيحي، وفي الفلسفة اليونانية، وكان الإغريق قد عبروا عن أسطورة الحكم الذاتي أوضح تعبير، وهم الذين وضعوا أعلى أهمية على التدبر العقلي والعقل، وعلى النّوس أو الذكاء الفعال، وحاجَّ الفلاسفة الإغريق في أن البشر فقط امتلكوا العقول، وهي تعطيهم القدرة على فهم الحقائق عن الكون، والعقول كانت فردية وارتبطت بالعقول الأخرى وبالذكاء الإلهي، ولذلك فقد كانت قلقة وتقدمية، ومتطورة دائماً، وإلهية وخالدة، وكان الناس يستطيعون أن يتعلموا المزيد عن طبيعة الحقيقة الواقعة من خلال ممارسة التدبر العقلي، ومن خلال المنطق، ومن خلال الرياضيات، ومن خلال التمثيليات، ومن خلال الاستكشاف والعمارة، وبقية الطبيعة كانت سلبية، وكان الناس يستطيعون ـ ويجب عليهم ـ أن يكونوا فاعلين، متفائلين، متسائلين، خلاقين ويعملون على التقدم الذاتي، إذ كان الناس يستطيعون أن يسيطروا على بيئتهم المحيطة بهم بتعلم القواعد التي تحكم الطبيعة.

وشارك الإغريق بأسطورة الخيريّة أيضاً، فالكون كان منظماً وعقلانياً، والشخص الذكي كان يستطيع أن يفهمه، ويسيطر عليه، ويحسنه، وفي قلب الفلسفة الإغريقية كان هناك المثل الأعلى من الامتياز، رؤية رفيعة لما كانت الإنسانية تستطيع أن تحققه، فالخُلق لم يكن خيّراً وحسب، ولكنه أيضاً يصير خيراً أفضل، من خلال الممارسة البطولية من العقل، وقد أعطى أفلاطون، بفكرته عن الروح، أوضح رؤية لخيريّة الإنسانية الموروثة أو الممكنة، فالروح، وعلى الرغم من أنها محبوسة في الجسم ومقيدة بالطبيعة المادية للمرء، كانت ثمينة لله، وأعطت الإنسان الوصول إلى الله، وأقدَرَت الإنسان على تحصيل الفضيلة.

وكان للفلاسفة الإغريق أيضاً تأثير فريد على أسطورة التقدم، واخترع أرسطو فكرة الإمكانية، فأعمق الحقيقة الواقعة لم تكن ما هو كائن، ولكن ما سيكون، وفي نهاية الأمر تستقر الحقيقة الواقعة لا في بداية الأشياء، ولكن في نهايتها الأخيرة، نهايتها التي تطمح إليها، وغرضها وشكلها النهائي، وهذه رؤية للعالم متفائلة تفاؤلاً أسمى، وتتضمن أن كل شيء يعمل نحو تجليات أفضل يتجلاّها الكون، وخططت لها العناية الإلهية، وحرض عليها التدبر العقلي الإنساني، وهو تراكمي ويسير قدماً، وما يُهِم هو ما يصير إليه العالم والناس، وماذا سيكونون حين يصلون إلى تحقيق إمكانيتهم الكاملة.

وفي الوقت نفسه، وبطريقة مختلفة، قدّم الأنبياء العبرانيون كذلك أفكار الحكم الذاتي، والخيريّة والتقدم، وقد رأينا في الفصل السابق أن حزقيال (597 - 563 قبل عصر المسيح) والأنبياء الآخرين دعوا

الأفراد إلى أن يتولوا المسؤولية الشخصية وأن يمارسوا المبادرة، ويظهروا الرحمة، والعدالة الاجتماعية والحب، وسوف يتقرر مصير العالم بالأفعال الإنسانية، ورأى العبرانيون التقدم بوصفه يد الله في التاريخ الإنساني، وفي نهاية الزمان سوف يظهر مسيح، زعيم إلهي، وسوف يصل التاريخ ذروة نصره، ومن خلال العبرانيين، سوف يؤسس الله مملكته إلى نهايات الأرض، جالباً السعادة والخلاص لكل الإنسانية، وعلى الرغم من كل ما حدث لليهود، في الأزمنة الماضية، والوسيطة، والحديثة، فهم لم يتخلوا عن تفاؤلهم، وفاعليتهم، ورسالتهم إلى كل العالم، وهو ما أدى إلى نتائج لا تتناسب إلى حد بعيد مع أعدادهم.

وفي صهر المسيحيين الأوائل للأفكار الإغريقية واليهودية معاً، أخذوها إلى قمم جديدة من التفاؤل والفاعلية، مضيفين إلى ذلك تحولهم الألفي الخاص بهم، وتحرك أتباع المسيح، إلى مدى لم يشاهد من قبل، لهداية الرجال والنساء، والأغنياء والفقراء، واليهود والإغريق، والرومان والبرابرة، والأرقاء والأحرار، مشعلة كل فرد مسيحي بنار حاجة ضاغطة؛ ليعيش حياة خيرية و«لينقذ» الذين حوله.

وفي داخل اللاهوت المسيحي، فإن حب الله والخيرية منزهان فوق مستوى الظن، وقد أُعطي الرجال والنساء، من خلال المسيح، الوصول إلى الطبيعة الإلهية، وبعد أن صارت المسيحية دين الدولة الرسمي للإمبراطورية الرومانية، في القرن الرابع، كان على اللاهوتيين

المسيحيين أن يكافحوا في الحوار مع رأي مؤثر إلى درجة كبيرة ومعاكس لرأيهم عن طبيعة الخير والشر، ولم تبق المسيحية أسرع الأديان نمواً في العالم، ولكنها المانوّية التي أسسها فارسي مع حلول القرن الثالث وعلَّم أن تأثيرات الخير والشر في الكون كانت في حرب دائمة أبدية، وكانت الإنسانية مأسورة في هذا الصراع، ولا تستطيع أن تهرب من قوى الشر، فهذا الدين المتشائم قوّض الفاعلية الإنسانية ودعا إلى رؤية جبريِّة للحياة وللتاريخ، فالخير لا يستطيع أبداً أن يكسب اليد العليا، إذ ليس هناك إله خير أقوى من الجميع.

وحين غمر العنف الإمبراطورية الرومانية الجديدة في المسيحية، وبدأت تنهار أجزاء، فرضت المانوية تحدياً فكرياً ضخماً على المسيحية، فوجود الشر والمعاناة كان لا ينكر، ونهض لمواجهة التحدي إفريقي، هو القديس أوغسطين من هيبو ولد في العام (354). وحاور في أن كل الخلق أخيار، وأن الإنسانية هي أعظم خلق الله، نظراً إلى أننا نمتلك القدرة لنضاهي بحرية خيرية الله. ومع ذلك، ففي خلق الله للإرادة الإنسانية الحرة، فقد كان عليه أن يسمح لنا بالضرورة بالحرية؛ لنختار إما الشر وإما الخير. ولذلك، فكل الشر ينتج من سوء الاستخدام الإنساني للإرادة الحرة، فالشر لا هو بالحتمي، ولا هو بالذي لا مهرب منه، ولا هو بالخالد، ومنذ أوغسطين، فإن هذه العقيدة ذات المطالب الكثيرة الشديدة، ولكنها العقيدة المفعمة بالسعادة مع ذلك. إذ بقيت في القلب من المسيحية، ومن الغرب.

وأسطورة التقدم أيضاً شحنت شحناً عالياً من المسيحية، وعلى الرغم من أن التوقعات المسيحية في القرن الأول عن نهاية وشيكة ومجيدة للتاريخ كان يجب أن تؤجل إلى أجل غير محدد، فإن الفكرة استمرت بالإصرار على أن غاية الله يجري إنجازها في التاريخ، من خلال شعبه الجديد المختار، المسيحيون من كل الأمم.

تراجع التفاؤل، وانبعاثه وأوجه.

على الرغم من أن أساطير التفاؤل الغربية الثلاث لم تذوِ أبداً أو تختفِ، فقد أُسكِتت أو صارت سرّية تحت الأرض من الوقت الذي انهارت فيه الإمبراطورية الرومانية وتفككت، إلى أن صارت الحركات الجديدة للنمو والحضارة أقوى تقدمياً بعد العام 1000م، وفيما بين ذلك، أدى الانهيار الاقتصادي وبروز الكنيسة الرومانية بوصفها أقوى مؤسسة في المجتمع إلى تثبيط أفكار الحكم الذاتي، والخيريّة والتقدم وتوهينها، وحين نمت الكنيسة، وصارت أشد قوة وتراتبية هرمية، وانطوائية على نفسها، وأكثر محافظة من الناحية السياسية، برزت النسخة المتشائمة من المسيحية، ففي وقت الركود الاقتصادي، والثقافي، والنفسي، نمت سلالة متشائمة في مسيحية القرون الوسيطة، وصارت أكثر تأثيراً مما كانت عليه، مؤكدة التهديد القاتل الذي طرحه، «العالم، والجسد، والشيطان»، ولم تكن مواجهة التهديد ممكنة إلا بالطاعة الورعة للكنيسة، وبالطقوس وآثار القديسين، وبنشدان الحماية من الملائكة والقديسين، ومن بينهم مريم العذراء

التي صارت أكثر بروزاً من ذي قبل، وبتطوير تديُّن داخلي يليق بالعالم الآخر، وإذا أمكن، بالانسحاب من العالم.

بعد العام 1000، حصلت أوروبة على قدر من الأمن السياسي، وبدأ النمو الاقتصادي، والتجارة، والسكان جميعاً في منحنى صاعد متردد، وصارت الزراعة أكثر إنتاجاً، ونمت التجارة بالمنتجات، وبرزت الدول المدن المستقلة بحكم ذاتي بوصفها جزراً للتجارة وللحرية النسبية، وأهم من هذا جميعاً، أن الاتصال مع الثقافتين الإسلامية والبيزنطية أقدر أوروبة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على إعادة اكتشاف عمل فلاسفة الإغريق القدامى وعلمائهم، وقد صرح توماس الأكويني (1225 - 74) المتأثر بأرسطو وبأفلاطون أن كل شخص كان مخلوقاً في صورة الله، وأنه كان يستطيع أن يسهم، إلى درجة معينة، في خلق الله اللانهائي للخير، وأعطى علماء من أمثال الأكويني ووليام أف أوكهام (1295 - 1349) الغرب ثقة متجددة ومتزايدة في التدبر الإنساني العقلي، وفي التجريب العلمي، وفي الحرية الفكرية من السلطة الكنسية.

وأدت إعادة اكتشاف بلوتارك (المولود في بداية القرن الرابع عشر) وأتباعه للعمق وللثراء غير العاديين للثقافتين الإغريقية والرومانية إلى توفير منبر جديد للتفاؤل حول الإنسانية، وإبداعها، وعظمتها، وكانت الآثار الأدبية القديمة موضع نظر، بوصفها مثرية للروح الإنسانية، وموفرة لتيار جديد من الاستبصار في دور الإنسانية في الكون، مقارنة بدور المسيحية نفسها، وفي القرن الخامس عشر أعاد

مارسيليو فيسينو، وبيكو ديللا ميراندولا وإنسانيون آخرون شرح أفلاطون؛ ليحاجوا في أن البشر امتلكوا رسالة إلهية للسيطرة على الكون المرئي بفهم قوانينه الفيزيائية والرياضية، وأعطى فيسينو الإنسانية الفضل عن «العبقرية نفسها تقريباً، مثل عبقرية خالق السماوات».

والرأي الجديد عن هذه الإمكانية جرى التعبير عنه أوضح تعبير في عصر النهضة، وكما يقول ريتشارد تارناس:

ضمن مدة زمنية لجيل واحد، أنتج ليوناردو، ومايكل أنجلو، ورافائيل روائعهم، واكتشف كولومبوس العالم الجديد، ولوثر... بدأ الإصلاح، وكوبرنيكوس... شرع بالثورة العلمية... وكان الإنسان قادراً الآن على اختراق أسرار الطبيعة... ووسع العالم المعروف، واكتشف قارات جديدة، ودار حول الكرة الأرضية... وحققت الموسيقا، والمأساة، والملهاة، والشعر، والرسم، والعمارة، والنحت كلها مستويات جديدة من التعقيد والجمال[1]. ونظر رجل عصر النهضة إلى نفسه، بوصفه خالقاً مشاركاً إلى جانب الله، وبدأت الأفكار الغربية، وأنماط التفكير، والطموحات، والاندفاع والإيمان في عقلانية الكون وفي قوة خيال الإنسان في فرض نفسها على العالم، وبدءاً من القرن الخامس عشر، بدأ الغربيون سلسلة من الرحلات في المحيطات، وهي رحلات جعلت العالم ينكمش لأول مرة، إلى كيان واحد كوكبي، وفي غضون قرن من رحلة كولومبوس الأولى، كان الغربيون قد أبحروا حول العالم.

(1) ريتشارد تارناس (1991) عاطفة العقل الغربي، كراون، نيويورك.

واتسم القرن السابع عشر بانفجار العلم، وهو الذي كشف لأول مرة القوانين الفيزيائية الأساسية للكون، واضعاً الأسس لعصر الآلة، وهو العصر الذي قام بدوره بتحويل العالم وتغييره، ومثل الرحلات البحرية، تزودت الثورة العلمية بالطاقة من التفاؤل الغربي ونُفذّت على وجه الحصر على أيدي الأوروبيين، فمن كولومبوس إلى برونيل إلى إنشتاين، فإن الميزة المحدّدة للغرب هي الفعل التلقائي من الأفراد، إذ ممارسة المبادرة الإنسانية ممارسة مستقلة إلى درجة كبيرة عن المنظمات والتراتبيات الهرمية الموجودة، وعقلية المستكشف، والطلب القلق من أجل إيجاد أو بناء شيء مختلف أو أفضل، وإنجازات الغرب ـ حسنها وسيئها ـ لم تكن في أعمق مستوى فيها، بسبب العلم أو التقانة أو النظام الاقتصادي، والأحرى أن هذه الآليات التي تمنح القدرة هي نتيجة شيء ما أكثر منها جوهرية: الأفكار المحرِّرة، والتجريب، والموقف، والتفاؤل ورأي عال جداً في إمكانية الإنسانية، وفي ألولهيِّة مُحسنِة عقلانية.

لقد حقق العلم الغربي هذا القدر الكبير؛ لأن طموحه لم يعرف أي حدود، ولأنه كان موجهاً باستمرار نحو غايات عملية لتحسين الحياة على الأرض، ومن دون هذه الروح، لن تكون التقانة كافية، ولقد امتلك المصريون القدامى أبواباً للمعابد بالطاقة البخارية، وامتلك الإغريق القدامى لعباً تعمل بالبخار، لكن فكرة استخدام الطاقة البخارية لصنع منتجات مفيدة جاءت بعد أكثر من 2000 عام، في بريطانيا القرن الثامن عشر، وقبل الثورة العلمية بقرون، امتلك المجتمع

الإسلامي أعظم علوم العالم وتقانته، وفي العام 1400، قبل أن يبدأ الأوروبيون بالإبحار عبر المحيطات، امتلكت الصين أسطولا ضخماً، وكان إلى حد بعيد أضخم أسطول في العالم، وتكون من مئات من السفن، ومن أكثر من 20.000 ألف ملاح. وهناك، طبعاً، أسباب معينة توضح لماذا جرى إعاقة التجديد التقاني الإسلامي، ولماذا قررت الصين في العام 1432 أن تفكك أحواض سفنها، وتوقف إبحار سفنها[1]، ولكن ليس مصادفة أن الغرب امتلك إيديولوجية للتوسع المتفائل المستند إلى رأي عال في الإمكانية الإنسانية، ولم يمتلك الإسلام والصين ذلك.

إن أعمال علماء من أمثال كبلر، وكوبرنيكوس، وغاليليو ونيوتن كانت في الوقت نفسه محفوزة بالتفاؤل ومعززة به إلى حد كبير، إذ كان العلم تجلياً لإمكانية الإنسان، ولتدبره العقلي وخياله، ولقد خدم العلمُ هدفاً، وهو رفع لعبة الإنسانية، وإعطاء الإنسان سيطرة على الطبيعة، وعلى الكون؛ لكي يستطيع أن يحسن موقفه، ويضيف كرامة ونبلاً إلى الحياة الإنسانية، وقد صرح فرانسيس بيكون بالقول: «غاية العلوم الحقيقية والقانونية هي أن الحياة الإنسانية يجب أن تُثرى بالمكتشفات الجديدة، وبالقوى الجديدة».

(1) انظر جارید دیاموند، «كيف تصير ثرياً»، إيدج 56، 7حزيران/يونيو 1999 (www.edge.org/doucments/archive/edge56)، وجارید دیاموند(1997) مدافع، وجراثيم، وفولاذ: تاريخ وجيز لكل شخص طوال 13.000 عام، تشاتو و ويندوس، لندن.

وقد جعل الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596 - 1650) التدبر الإنساني العقلي هو اختبار المعرفة الأسمى، ولأول مرة في التاريخ، كان يظن أن السعادة الإنسانية هي نقطة الكون، وقد رأى الشاعر أليكساندر بوب الطبيعة الإنسانية تتبع مبدأين متكاملين:

حب الذات والعقل يطمحان إلى غاية واحدة

الألم هو ما يكرهون، واللذة هي ما يرغبون

وكان مفكرو عصر التنوير في أوروبة وأمريكا في القرن الثامن عشر أعظم شُرّاح للحكم الذاتي المستقل، وللخيرية الإنسانية والكمال، والتقدم، فعمانويل كانط عرف التنوير بأنه الحكم الذاتي الإنساني، والشجاعة في استخدام المرء لفهمه الخاص فقط.

بل ذهب فلاسفة التنوير إلى غاية أبعد من ديكارت في رفع العقل الإنساني، الذي رأوه منفصلاً عن بقية الطبيعة ومتفوقاً عليها، وأبرز دينيس ديدرو (1713 - 84) فرادة الإنسانية في إعطاء معنى للحياة: «إن حضور الإنسان هو الذي يجعل وجود الكون ذا معنى»[1].

وبعد تحررنا من التطيُّر المبني على الجهل، كنا نستطيع أن نصير أكثر معرفة، وأكثر أخلاقاً، وأكثر رحمة إنسانية، وأكثر أصالة، وقد صرح المؤرخ إدوارد جيبون بالقول:

(1) دينس ديدرو، الموسوعة، ص 56. انظر /www.tuna.uchicago.edu/homes .mark/enc-demo.

لا نستطيع أن نكون على يقين إلى أي قمة يمكن للجنس البشري أن يطمح... ولذلك، فنحن قد نخضع بأمان في الاستنتاج السار، وهو أن كل عصر من العالم قد زاد، ومازال يزيد الثروة الحقيقة، والسعادة، وربما الفضيلة، للعرق الإنساني[1].

بل إن الشعراء الرومانسيين والكتاب من مطالع القرن التاسع عشر اتخذوا رأياً أقوى تجاه إمكانية العقل، ورأوها أقوى إمكانية في ممارسة الخيال، والقدرة على تحويل اليومي إلى شيء خاص، والقدرة على أن تدرك فيما وراء مستوى سطح العالم حقيقةً أعمق، وأن «ترى داخل حياة الأشياء»، كما كتب وردزورث في تينترن أبي، وبالنسبة إلى الرومانسيين ـ وهم الرواد السابقون للبيئيين المعاصرين ـ فإن علاقة العقل الإنساني والإدراك الحسي بالعالم الخارجي كانت قد تحولت تحولاً كاملاً بفضل شدة الخيال.

وتطور وحيد آخر ـ وهو النمو الاقتصادي ـ زود التفاؤل بالوقود واستحثه، فالتوسع في التجارة من حوالي العام 1450 إلى العام 1750، والانفجار الذي تبع ذلك في الصناعة المستندة إلى الآلة، كانا مرتبطين ارتباطاً قريباً، ومن الناحتين، مع التفاؤل والفاعلية، والرابطة بين التفاؤل والتجديد الاقتصادي هي التجريب والاستقلال الذاتي للتجار ورجال المشروعات، والتفاؤل يعني ضمناً ألا تكون خائفاً من أن

(1) إدوارد جيبون (1993) تاريخ انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج 1، إيفريمان، لندن.

تجرب، والنمو الاقتصادي يتطلب التجديد، وكان التجديد ممكناً في الغرب؛ لأن القدرة على أن تجرب، وعلى أن تنشر الأساليب والتقانات الجديدة الناجحة كانت قدرة منتشرة على نطاق واسع، وكانت اللامركزية أمراً جوهرياً، واحتاجت إلى الحكم الذاتي المستقل، وإلى رجال المشروعات المتفائلين[1]. وكثيرون من أعظم المجددين الاقتصاديين من أواخر القرن الثامن عشر، من أمثال بنجامين فرانكلين، وجوزيه ويدجوود، وجوزيف بريستلي، وجيمس واط، كانوا متعلقين متحمسين بفكر التنوير، وقادة عظماء للتقدم.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، حين صار النمو في اقتصادات الغرب أمراً لا يمكن نكرانه، وحين ظهرت المعجزات الجديدة للتقانة ـ السكك الحديدية، والفولاذ الرخيص، والكهرباء، والغاز، وأنظمة البريد الوطنية، والبرقيات، والهاتف، والطعام المعلب، والتصوير الضوئي، والسيارات ـ وتكاثرت كالفطر، وحين صار سبق الغرب الاقتصادي وتقدمه على بقية العالم أضخم وأضخم، أضيف الدليل المادي عن التقدم إلى التأمل الفلسفي بوصفه مصدراً كبيراً للتفاؤل، وسواء كانوا صناعيين أو محرضين سياسيين أو مفكرين، وسواء كانوا محافظين، أو ليبراليين، وديمقراطيين اجتماعيين أو شيوعيين، فإن مشكلي الرأي في أواخر القرن التاسع عشر، وفي مطالع القرن العشرين كانوا عملياً يعتقدون بالإجماع أن الصناعة الغربية الحديثة كانت تمتلك الإمكانية لإبعاد الجوع والفقر عن مجتمعها.

(1) انظر ناثان روزنبيرغ وال. ئي بيردزيل، الصغير (1986) كيف صار الغرب غنياً: التحول الاقتصادي للعالم الصناعي، بيسك بوكس. (هاربر ـ كولنز)، نيويورك.

موت التفاؤل

يمكن تتبع جذور التشاؤم الحديث والعودة به على الأقل إلى بُعد يصل إلى الستينيات من 1760، حين أحيت «الروايات القوطية» الإنجليزية الصور المتجهمة الخارقة للطبيعة، وصورت أبطالاً وبطلات يتصفون بالأنانية، وكسرت انسجام الإحسان الإلهي والإنساني، وسواء كان ذلك في خيالات الرومانسيين الألمان من السبعينيات من 1770، أو من الفساد الأخلاقي في رواية دو ساد في الثمانينيات من 1780، أو في الرعب الذي غذته الغوغاء للثورة الفرنسية، فإن الجانب الأسود للإنسانية، انفجر وظهر ظهوراً كاملاً للعيان، بعد أن كان قد أهمل أو أخفي على يد مثالية التنوير المسطحة، وفي العقود التي سبقت العام 1914، اتحدت قنابل العدميين الروس، وفلسفة شوبنهور، وفن أوائل التعبيريين، والاستكشافات النفسية لفرويد؛ لتساند رؤية مظلمة لطبع الإنسانية ومصيرها، ولكن لا شيء حطم الأوهام التفاؤلية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحطيماً كاملاً مطلقاً أكثر من حوادث الأعوام من 1914 إلى 1945.

فالإيمان بالحكم الذاتي المستقل للإنسان، وبخيريته، وبتقدم الحضارة الغربية سُحق، طوال جيل، وربما إلى الأبد، بسلسلة من الكوارث وردود الفعل عليها، وذلك بفعل الطبيعة المروعة للحرب العظمى وعواقبها، وبفعل الاعتقاد المتنامي أن الموضوعية استبعدت البحث عن المعنى، وبسبب التصور، الواضح في روايات فرانز كافكا

على سبيل المثال التي جاءت كأنها تنبئ بالغيب في أواسط العشرينيات من 1920، والذي يتصور أن الناس ليسوا أحراراً في الواقع، ولا يقررون مصيرهم الذاتي، ولكنهم محكومون ومخضَعون بتأثيرات شريرة تستعصي على الإدراك بالفكر، وهي في الوقت نفسه مرعبة، وبيروقراطية، وخارجة عن مدى الفهم، مثل هذه المجتمعات المرعبة جاءت سريعاً لتتحرك عبر أوروبة الوسطى والشرقية، حين قام ستالين وهتلر بتشويه مظهر الحضارة الغربية وتفكيكها، وفي أمريكا كذلك، وفي الأجزاء القليلة من أوروبة التي بقيت لم تمسسها دول الكراهية، كانت الثلاثينيات من 1930 محكومة بالانهيار الاقتصادي وبنظريات الساخطين من الحضارة الغربية، ولم يتم استبعاد ذلك إلا جزئياً بفضل الجهود الباسلة التي بذلها المتفائل فرانكلين د. روزفلت، ولقد انحرف تطور الإنسانية وضل، وبدا، كما قال بيرتراند رسل، أن «الفكر هو البوابة إلى اليأس».

من العام 1917، وحتى العام 1989، كان بقاء الغرب على قيد الحياة موضع شك، حين تضخمت، ثم تضاءلت الشيوعية والنازية، وكلتاهما فكرة غربية، ولكنهما مع ذلك عدوتان مريرتان قاتلتان تقريباً للحضارة الغربية.

وإن نهاية الكابوس الشمولي، و60 عاماً من السلام والرفاهية السائدين لم تؤدِ إلى إعادة ترسيخ التفاؤل التاريخي للغرب كذلك، وللصورة اليوم إطاران اثنان، والأوروبيون، والمفكرون الأدباء، ووسائل

الإعلام، والثقافة العامة، وأخفض ثلث من الكَسَبة، يميلون نحو التشاؤم، والأمريكيون، والأستراليون، رجال الأعمال، والعلماء، والنخبة السياسية، والأثرياء يميلون إلى التفاؤل، وخطورة الجبرية أقوى.

ونستطيع أن نربط انهيار التفاؤل منذ العام 1900 أكثر ما نربطه بالدليل، أو بالدليل الظاهر، على أن كل الرؤية الغربية للإنسانية، وعلى وجه الخصوص الرؤية التي كانت هي السائدة من العام 1700، وحتى العام 1900، كانت في جوهرها نظرة كريمة جداً، فالحكم الذاتي المستقل للإنسان، وخيريته، والإيمان بالتقدم التاريخي، وضعت كلها ضمناً موضع النزاع في صحتها في بداية القرن العشرين تماماً، مع نشر كتاب سيغموند فرويد تفسير الأحلام، وقبل ذلك بنصف قرن، كان كارل ماركس قد زعم أن حرية الإنسان والحكم الذاتي المستقل كانت أضاليل، وظهر فرويد الآن ليقدم الدليل، وباختراع فرويد لفكرة اللاشعور، ورواية تفاصيل الوساوس الجنسية التي حفزت الناس حتى أكثر الأفراد منهم قدرة في الظاهر وأوقعتهم في شرك الاستجابات المعتادة، فإن فرويد كان باختراعه ذلك قد قوض فكرة الحرية الإنسانية، وإن الوعي النفسي كشف الغطاء عن صندوق باندورا المليء بالشرور من الصراعات الداخلية المتأججة، والكبت، والغربة، والذّنْب، والعار وعُصابات لا تنتهي.

ولم يكن لدى فرويد أدنى شك حول أهمية عمله وحول الظلال التي يلقيها، وكتب يقول: «كان على الإنسانية في مرور الزمن أن تتحمل من أيدي العلم ثلاث إساءات فظيعة على حبها الساذج لذاتها».

- اكتشافها أن العالم بقعة صغيرة في كون رحيب لا مركز الكون.
- واكتشاف أن الله لم يخلقنا خلقاً فريداً، ولكننا انحدرنا من القردة.
- واكتشاف أن عقولنا الواعية لا تخبرنا بالكيفية التي نتصرف بها، ولكنها بالأحرى تخبرنا بقصة جنيات تهدف إلى خدمة الذات[1] وربما لم يغير مفكر مفرد التفكير الغربي تغييراً أعمق منه، وقلب التفاؤل السائد إلى تشاؤم سائد.

وما بدأه فرويد، أكمله علم الوراثة، وعلم الحياة الداروينى الجديد، وعلوم الأعصاب المعرفية في السنوات الخمسين الماضية، وأدى اكتشاف فرانسيس كريك وجيمس واطسون في العام 1953، أن البشر يشتركون بتركيب دنا (دي إن إي) الأساسي نفسه مع كل النباتات والحيوانات الأخرى، إلى رفع درجة أهمية المورثات، وفي العام 1976، عرض ريتشارد داوكنز عالم الحياة في أكسفورد تحويراً جديداً على الحكم الذاتي المستقل الإنساني، فقد رأى كتابه المؤثر تأثيراً ضخماً، بعنوان "المورّثة الأنانية" المورثة الموروثة بوصفها الوحدة الأساسية للانتقاء ولإيثار مصلحة الذات على الآخر[2]، وقد أظهرت علوم الأعصاب الحديثة أن عقولنا مركبة من دوائر عصبية معقّدة من أجل التفكير، والإحساس والتعلم.

---

(1) مقتبسة في ستيفن بنكر (2002) اللوح الفارغ: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية، بنغوين، نيويورك.

(2) ريتشارد داوكنز (1976 طبعة منقحة 1989) المورثة الأنانية، مطبعة جامعة أكسفورد، أكسفورد.

إن المعرفة الجديدة عن المورثات، وعن العقل قد تحدت فكرتين كانتا في السابق قد دعمتا التفاؤل الغربي بشأن الطبيعة الإنسانية، الفكرة الأولى، وكانت شائعة طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي أن عقل كل شخص يبدأ بوصفه «لوحاً فارغاً»، ويمكن أن يملأ حسب الإرادة من الآباء، والمربين، والمجتمع، ونحن نعرف الآن، مع ذلك، أن هذه الفكرة خطأ[1] وإن تغيير خبرات الناس يمكن أن يكون له بعض الأثر، ولكنه لا يستطيع أن يعيد تصميم طبعهم، والفكرة الأخرى، وهي فكرة أقدم بكثير تدعم رؤية شمسية للإنسانية، وكانت، كما لاحظنا آنفاً، فكرة الروح، التي كانت إلى حد كبير نوعاً ما ليست موضع نزاع في الغرب منذ انتصار المسيحية، ولقد بحث علماء الأعصاب في القرن العشرين عبثاً عن الروح.

وبالنسبة إلى المفكرين والمواطنين العاديين على حد سواء، فقد بدا لهم التحليل النفسي وعلوم الأعصاب، وكأنهما يبرئان دليل الرؤية المظلمة للطبيعة البشرية من فظاعات القرن العشرين، ومن الحروب المروعة التي ثارت في أماكن أخرى من العالم في كل يوم منذ العام 1939، ويعرض التلفاز والصحافة دليلاً صارماً عن الفساد الأخلاقي للإنسانية، وفي قلب الغرب كذلك، الذي لم يمسسه نزاع كبير منذ العام 1945، يستطيع المتشائمون أن يجدوا الكثير من الأدلة على أن الطبيعة البشرية ضعيفة، أو متعفنة مع تحليق كلٍ من الاكتئاب، والنرجسية، والإدمان على المسكرات، والإساءة بتعاطي المخدرات،

(1) انظر بنكر (2002).

والوسواس بالذات، والانتحار تحليقاً عالياً، وخصوصاً بين الشباب، وفي الوقت الذي تظهر فيه أوتار السلوك المهذب والمجتمع، وقد صارت مقطوعة بالمادية المتغلغلة في كل شيء، وبالجشع والأنانية.

والمشكلة الوحيدة مع هذه الرؤية الواضحة والواسعة الانتشار ـ وهي أن العلم وخبرة القرن العشرين تبرر التشاؤم ـ هي أنها رؤية زائفة، وهذا لا يعني أن نقول: إن التفاؤل لم يبق مبرراً بالحقائق، والأمر ببساطة هو أن أسس التشاؤم الحديث مهتزة أكثر بكثير مما تظهر عليه.

والعلماء والمؤرخون، وإلى حد لا يقدّره الرأي العام، يتخذون الآن من فرويد، ومن مكتشفاته وجهة نظر مختلفة جداً، ففي العام 1972، قدَّر السير بيتر ميداوار، الطبيب البريطاني البارز والحائز على جائزة نوبل أن التحليل النفسي هو «واحد من أشد الأحداث البارزة كلها حزناً وغرابة في تاريخ فكر القرن العشرين»[1]. ويجد مؤرخ الأفكار بيتر واطسون، الذي يعرض رواية عادلة ومتوازنة عن فكر القرن العشرين تركة فرويد معيبة عيباً عميقاً، ويقول: إن الروايات الفرويدية، ورسوماته، وأوبراته، «قد ساعدت على إشاعة رؤية معينة للطبيعة البشرية، وخلع الشرعية عليها، وهي رؤية خطأ، وكل الدلائل على عكس ذلك مفقودة»[2]، ويقول أيضاً: إن «بحث» فرويد الآن غير

(1) بيتر بي. ميداوار (1972) أمل التقدم، ميثوون، لندن، ص 68.
(2) بيتر واطسون (2000) جمال رهيب: الناس والأفكار التي شكلت العقل الحديث ـ تاريخ، ويلدنفيلد ونيكلسون، لندن.

obeikandl.com

مصدق إلى حد كبير، وإن معظم أفكاره غير علمية بالكامل، وهي «مساوية للتصديق بالأطباق الطائرة».

وليس بمقدورنا أن نستبعد علوم الأعصاب، وعلم الحياة الداروينى الجديد بهذه الطريقة، ومع ذلك، فلا يلزم من هذا أن تكون مضامينها على هذه الدرجة من التشاؤم، مثلما ذهب الظن أول الأمر، ويقول ستيفن بنكر: «إن تمرير اللوح الفارغ أقل إزعاجاً، وفي بعض النواحي أقل ثورية، مما ظهر عليه في أول الأمر... إن جنون العظمة لدى المورِّثات لا يعني أن الإحسان والتعاون لا يمكن أن يتطورا، بأكثر مما يعني القول: إن قانون الجاذبية يبرهن أن الطيران لا يمكن أن يتطور».

التفاؤل يرد بالمِثْل

الأرض المهمة الحاسمة للمتفائلين، وللمتشائمين هي الإدراك العقلي للطبيعة الإنسانية، فهل برر فعلاً علم القرن العشرين رؤية لبني البشر أكثر ظلمة وكآبة؟ إن استنتاجنا حتى الآن هو: ليس كذلك فعلاً، فلقد كانت الأفكار الفرويدية مؤثرة حتى الآن، ولكنها ليست مبررة بالدليل. وإن أهمية التأثيرات الوراثية على الإنسانية، وتراجع «اللوح الفارغ»، تحاجُّ بقوة ضد قابلية الإنسان للكمال، ومع ذلك فهي، إلى حد ما، تُعلي أكثر مما تنقِص من أهمية إرادتنا الحرة، ومن نُبل الحضارة التي حققتها الإنسانية في تجاوز تأثيراتنا الحيوانية والجسدية المحضة.

في العام 1996، فسر كتاب مات رايدلي، أصول الفضيلة، أحدث دليل قدمه علم الحياة ونظرية الألعاب لدعم رؤية متفائلة للإنسانية

وللمجتمع، وحاجٌّ في أن المجتمع هو نتاج موروثاتنا وتطورنا غير الموروثاتي، نحن بني البشر، فريدون؛ لأننا ننظم أنفسنا في جماعات كبيرة، مع وجود علاقات داخلية معقدة بين الأفراد، ولأننا نتعاون بطريقة أساسية مختلفة عن الحيوانات الأخرى: «الدماغ البشري ليس أفضل، وحسب من الحيوانات الأخرى، إنه مختلف... إنه [قادر على أن] يستغل العلاقات التبادلية، وأن يبادل أعمال المعروف، ويحصد منافع الحياة الاجتماعية»[1]. ويربط ريدلي هذا باختراع التجارة التي يقول عنها:

> ... إنها تمثل واحدة من اللحظات القليلة جداً في التطور، حين عثر الإنسان العاقل على ميزة بيئية منافسة متفوقة على الأنواع الأخرى التي كانت فريدة فعلاً، وليس هنا ببساطة أي حيوان آخر يستغل قانون الميزات المقارنة بين الجماعات.

ويمكن توضيح أهمية التجارة والتعاون توضيحاً بيانياً بمقارنة التسمانيين المحليين والسكان الأستراليين المحليين، فحين هبط الأوروبيون في تسمانيا في العام 1842، وجدوا مجتمعاً هو أكثر المجتمعات بدائية في العالم في ذلك الوقت، ولم يكن التسمانيون المحليون يستطيعون إشعال نار، ولم يكونوا يمتلكون الأدوات المصنوعة من العظام أو الفؤوس ذات الأيدي أو القوس الخشبي الذي يرتد إلى

(1) مات ريدلي (1996) أصول الفضيلة، بنغوين، نيويورك.

obeikandl.com

راميه، ولم يكونوا يستطيعون صيد السمك، أو أن يصنعوا ملابس دافئة، وكان السكان الأصليون الأستراليون يستطيعون عمل كل هذه الأشياء. وكانت الجماعات المعزولة من أمثال التسمانيين تعاني؛ لأن معظم المجتمعات تحصل على أفكارها وتجديداتها من الخارج، من خلال الاتجار بالسلع وبالأفكار، والمجتمع الإنساني يتقدم من خلال التجارة، والتخصص، والتعاون بين الجماعات.

بعد العام 1970، طور علماء الرياضيات نظرية الألعاب باستخدام الحواسيب، بمقارنة نتائج اللاعبين الذين يتعاونون أحدهم مع الآخر في مقابل نتائج اللاعبين الذين يلاحقون مصالحهم الأنانية الخاصة، وأحد المفاهيم التي استخدمتها نظرية الألعاب كان مفهوم «مأزق السجين»، وفي هذا المأزق مجرمان، يقفل عليهما في غرفتين منفصلتين، ولا يستطيعان الهرب من العقاب، إلا إذا رفض كلاهما بشكل مستقل أن يخون أحدهما الآخر، فإذا أعطيا صفقة من الحصانة أو الحكم الخفيف إن ورط أحدهما السجين الآخر، فإن كلا الفريقين سيختار بشكل أناني ذلك المسار، وهذا ما بدا أنه يوحي، بأسلوب حديث كلاسيكي، باتِّباع ماركس، وفرويد والكثير من التاريخ الحديث، أن النزاع كان مستوطناً للمجتمع، وأن التعاون كان محتوماً له أن يكون محكوماً بالأنانية، ولكن في العام 1979، نظم روبرت أكسيلرود العالم الاجتماعي سلسلتي مباريات، ودعا الناس فيهما إلى وضع برامج حاسوب متنافسة؛ ليلعبوا لعبة مأزق السجين 200 مرة ضد برنامج أحدهم الآخر الذي أدخلوه، وضد نفسه، وضد برنامج عشوائي، وفي

كل مرة، ومن مجموع 76 مرة إدخال، ربح البرنامج نفسه، وكان اسم البرنامج ضربة مقابل ضربة (تت ـ فور ـ تات)، وابتكره العالم السياسي الكندي أناتول رابوبورت، وبدأ بالتعاون ثم فعل الشيء نفسه، مثلما فعل اللاعبون الآخرون في المرة السابقة، وشرح أكيسلرود لماذا ربح برنامج ضربة في مقابل ضربة «تيت ـ فور ـ تات»:

> ما يفسر النجاح القوي لبرنامج ضربة في مقابل ضربة هو مزجه بين كونه لطيفاً، ومتسامحاً، وواضحاً، فلطفه يمنعه من الوقوع في مشكلة مزعجة غير ضرورية، ورده الانتقامي يثبط الجانب الآخر عن الاستمرار في الإصرار، كلما حاول نقض الولاء، ويساعده تسامحه على استعادة التعاون المتبادل، ويجعله وضوحه مفهوماً للاعب الآخر، وبهذه الوسيلة يستدعي تعاوناً طويل الأمد[1].

والقضية الأخرى من أجل التفاؤل، طرحها في العام 2000 عالم علم الحياة العصبية كينان ماليك[2]، فهو يقول: إن الإنسانية هربت من القيد الجسدي والحيوي إلى الوجود الاجتماعي، فالبشر يشاركون الشامبانزي في 98 بالمئة من مورِّثاتهم، ومع ذلك فقد أنجز البشر وجوداً مختلفاً تماماً من خلال اللغة، ووعي الذات، والخيال واستخدام

(1) روبرت أكسيلرود (1984 تطور التعاون، بيسيك بوكس، نيويورك).

(2) كينان ماليك (2000) الإنسان، والوحش، وزومبي: ما يستطيع العلم أن يخبرنا به، ومالا يستطيع العلم أن يخبرنا به عن الطبيعة البشرية، ويدينفيلد ونيكلسون، لندن.

obeikandl.com

الرموز، ويحاجّ في أن «البشر واعون بأنفسهم بوصفهم وكلاء، وواعون بالعالم الذي تتوجه وكالتهم نحوه» وإن البشر ينجزون أكثر من مجموع أفعال الأفراد من خلال التعاون في المجتمع، ولسنا فقط مجرد كائنات جسدية، ولكننا كائنات اجتماعية أيضاً. «قد يكون المخ آلة بالفعل، أما العقل فلا» فما يميز العقل، هو أنه على خلاف المخ، لا ينتمي إلى الفرد بشكل محض والعقل يتأثر بعقول أخرى، ويؤثر فيها، إن البشر، إنما يكونون في الأفكار والعلاقات، مختلفين كمياً عن الحيوانات الأخرى.

البشر يغيرون العالم، وهم يغيرون الثقافات بدلاً من أن يقبلوها ببساطة، والبشر يخترعون الأدوات ـ اللغة، والمفاهيم، والتقانة ـ التي تذهب إلى أبعد من الوراثة الإنسانية نتيجة الانتقاء الطبعيّ، وإنهم يعتمدون بشكل أساسي على العلاقات، والتقمص الوجداني، والتعاون، والعمل المشترك.

إن الكتّاب من أمثال رايدلي ومماليك يرجعون بنا إلى الخلف إلى المعجزات التي أنجزتها الحضارة، من خلال التعاون الإنساني والإبداع، وإن أكبر فهم لنا لحالنا الذي نبدو عليه، ربما يكون له ثلاثة مضامين مفيدة، الأول: هو أن هناك سلسلة كبيرة من السلوك الإنساني، والثاني: هو أن التعاون الإنساني، طوال المسافة الطويلة، اعتمد على مجتمعات أكثر تعقيداً دائماً وأعظم تبادلاً في اعتماد بعضها على بعض، وهو ما أقدر البشر على الازدهار والتكاثر، والاستنتاج الثالث: هو أن التعاون لا يعمل تلقائياً، ولكنه يحتاج إلى أن يُحرّضَ بالتقاليد التي تشجع التعاون وتثبط الأنانية.

بعد أن أزيحت الرؤية المتشائمة عن الطبيعة الإنسانية جانباً، هناك أسس موضوعية قليلة أخرى للتشاؤم، وإن الفهم الذي يرى أن القرن العشرين كان دموياً على نحو فريد هو فهم غير صحيح، ففي المجتمعات البدائية المتنوعة، وصلت النسبة المئوية لوفيات الذكور الناتجة عن الحرب إلى مدى يراوح بين 10 و60، والنسبة المئوية المعادلة بالنسبة إلى الغرب في القرن الماضي، ومن ضمنها الوفيات الناتجة عن حربين عالميتين، كانت 2 بالمئة لا غير[1]. وكذلك فإن زيادة انتباه وسائل الإعلام بالحرب لا تعني أن الحرب صارت أسوأ، وقد أظهرت دراسة حديثة لجامعة ماريلاند أن تكرار الحرب وشدتها، مقارنة مع 15 سنة مضت، قد هبطت بأكثر من النصف[2].

ومع ذلك، فهناك تطوران نهائيان اثنان يجب أن نسلط الضوء عليهما، وهما في الوقت الذي لا يوفران فيه بالضرورة تبريراً للتشاؤم المتزايد، يساعدان بالتأكيد على تفسيره. أحدهما، وهو ملحوظ ومفهوم على نحو جيد، هو «التدمير الخلّاق» الذي صنعه تفكيك الرأسمالية المسيطر عليها، وذلك بإزالة الأنظمة، والخصخصة، وتخفيض حواجز الاستيراد، وتجليات أخرى من الأسواق الحرة والفوضوية على نحو متزايد، وإن الثروة العامة تتزايد، ولكن التباينات في الدخل وعدم الأمان الشخصي تتزايد كذلك.

(1) البيانات من بنكر (2002)، ص57.

(2) مقتبسة في «اتجاهات في أماكن عالية» اقتبسها ستاين ـ رينجين، مجلة فايننشال تايمز، 23 تموز/يوليو 2005، ص20، فإذا كنا نجد هذا مفاجئاً، فهو يدل على المدى الذي قام به التشاؤم المعاصر بتشويه إدراكاتنا.

والتطور الثاني أقل وضوحاً وأكثر أهمية، فقد قالت جيرترود ستاين: «في القرن العشرين لا شيء متفق مع أي شيء آخر». لقد انتقلنا من مجتمع متكامل نحو مجتمع تعددي أكثر تشظياً بكثير، ولقد اعتقد كارل ماركس، إلى جانب كل مفكر آخر من القرن التاسع عشر تقريباً، أن المؤسسات المختلفة للمجتمع ـ السياسية، والاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، وبشكل أوسع بكثير الفكرية ـ عزز بعضها بعضاً بشكل طبعيّ. وما لم يستطع ماركس أن يتخيله هو ما يُجلّيه الغرب الآن، وهو عالم قد تكون فيه الأعمال التجارية والصناعية، والفنون، والكنيسة، ووسائل الإعلام، والطبقات السياسية، والعلماء، والمفكرون الأدباء، والجماعات المهنية الأخرى، والجماعات المرتبطة بهويات عرقية أو ثقافية فرعية في نزاع مع بعض الجماعات الأخرى أو معها كلها، أو قد تكون بطريقة أخرى غير مكترثة بها، مع درجات مختلفة من التسامح والاحترام المتبادل.

إن الوحدة والإجماع أصعب اليوم؛ لأن أجزاء مختلفة من الحياة الحديثة تمتلك حكمها الذاتي المستقل وأعرافها المتميزة، ويحتمل أن يميل تعقيد المجتمع وتمييزه المضافان إلى زيادة الثراء الثقافي، والثروة، والمعرفة والحرية الشخصية، ولكنهما يميلان أيضاً إلى إنقاص الإحساس بهويتنا المشتركة وبمصالحنا، ولذلك، فإن التفاؤل والثقة في المجتمع قد تنهاران كذلك إلى حد كبير، ولو كانت المؤشرات الموضوعية للرفاهية والتقدم تتجه إلى الأعلى، فإذا أضفنا الانهيارَ المؤثر الضخم للثقة العامة ولتصديق الحكومة، في نصف القرن

الماضي ـ حتى الآن، بالإضافة إلى المؤرخين، وهم الحافظون الرئيسون للأساطير الضرورية للمجتمع عن نفسه وفضائله ـ نستطيع أن نرى كيف أن تكاثر التشاؤم يمكن أن يتعايش مع التقدم الاجتماعي المتزايد.

خاتمة

لقد اندفع نجاح الغرب بشكل جوهري بالتفاؤل، وتبدو جذور التفاؤل، وقد ذوت.

ومن الأفضل أن نكون واقعيين أكثر من أن نخدع أنفسنا، ومع ذلك ومهما تكن الحقائق، فإن هناك طيفاً ضخماً من التفاؤل أو التشاؤم يمكن للأفراد وللحضارات أن يختاروا من خلاله أن يفسروا الواقع الحقيقي، وإن العالم موجود في عقولنا، ومواقفنا نحو العالم تغذي أعمالنا وتؤثر تأثيراً قوياً على درجة نجاحنا، وما سيحدد منحى الحضارة إلى مدى كبير هو كون هذه الحضارة من الحضارات فاعلة أو سلبية، أو كونها واثقة بذاتها، أو ناقدة لذاتها، أو كانت موحدة، أو منقسمة، ومن دون تقدير الذات، لا يستطيع الفرد أن يعمل إلا القليل من العمل البنّاء، والشيء نفسه يصدق على المجتمعات والحضارات.

لقد كان أعظم تحد للتفاؤل في آخر 100 أو 150 من السنوات الماضية هو رؤية جديدة منحدرة متشائمة للإنسانية، وكانت مشتقة على ما يبدو من مكتشفات علم الحياة وعلم النفس، وليس هناك إنكار للمدى الذي نميل إليه في اتخاذ رؤية أكثر ظلمة عن الإنسانية، ومع ذلك، فليس هناك في العلم الحديث ما يستدعي مثل هذا اليأس،

ولقد فقدنا الاعتقاد باللوح الفارغ، وفي كمال الإنسانية، ولكننا نمتلك أيضاً رؤية أوضح وأقوى عن الاختلافات الفريدة للإنسانية عن الحيوانات الأخرى، وعن مجد العقل، والواقع الحقيقي للإرادة الحرة، وعن قدرتنا على الارتقاء من خلال اللغة المشتركة، والأفكار المشتركة وسيطرتنا على الطبيعة، وعن الإنجازات التي حققتها مجتمعات أكثر تعقيداً، واعتماداً من بعضها على بعض، وأكثر تعاوناً دائماً.

إن الميل الموروث لدى الحضارة الغربية الحديثة هو ميل إلى اللامركزية، وإلى التشظي وحل الروابط التي كان من عادتها أن توحد مجتمعات أكثر تجانساً، وقد يكون ثمن التقدم هو أن نبصر بدلائل أقل عن هذا التقدم، ومن الأصعب أن نرى الصورة الكبيرة، ومن الأصعب كذلك أن نقدرها إلى أكمل مدى يمكن تبريره.

إن كان «التفاؤل الواقعي» يجعلنا أسعد، وهو شرط لتقدم حضارتنا، فالغرب، يواجه، إذاً، تحدياً قاسياً، فنحن لسنا فقط ضحايا نجاحنا الخاص، نحن لا نستطيع كذلك أن نعتمد على أنه مستمر، ونحن لا نملك شيئاً لنكون متشائمين نحوه عدا التشاؤم نفسه، ومع ذلك فالنظر إلى حضارتنا وإنسانيتنا في ضوءٍ ألطف وأكثر إيجابية لا يسير ضد انحيازاتنا السائدة فقط، بل ضد الاتجاهات الاجتماعية الطاردة المركزية أيضاً، والتي ما تزال تتسارع، وإن تدوير الغرب ليعود إلى التفاؤل الذي سوف يستغرق حركة فكرية وعملية جديدة كاملة، وليس هناك أي علامة على مثل هذا التحول في الأفق، وعلى الرغم

من أنه لا توجد أسباب قاهرة تجبر على الكآبة، وهناك أسباب عملية عديدة تدفع إلى النظر إلى الجانب المضيء، فإن من العسير أن نكون متفائلين بشأن مستقبل التفاؤل.

obeikandl.com